

مجلة الهلال

نوفمبر 1998

قضايا حيوية

هنرى كورييل، بين الأسطورة والواقع التاريخي

بقلم د. رعوف عباس

فى يناير الماضى صدر كتاب "أوراق هنرى كورييل والحركة الشيوعية المصرية"، الذى قمت فيه بنشر بعض ما استطعت الحصول عليه من أوراقه التى يحتفظ بها بعض رفاقه الذين عملوا معه فى باريس، وتستمد هذه الأوراق أهميتها من الدور الذى لعبه صاحبها فى الحركة الشيوعية فى مصر. وهى عبارة عن سيرة ذاتية قصيرة خصصها لنشاطه فى مصر وبعض التقارير التى كان يرسلها من باريس إلى رفاقه فى "حدثو" وهو التنظيم الذى شارك كورييل فى إقامته، كما تضمنت الأوراق رسالتين بعث بهما إلى نعوى كائل التى كانت مسجونة بمصر، وقدمت لهذه المجموعة من الوثائق بدراسة تحليلية لأبعاد الدور الذى لعبه كورييل فى الحركة الشيوعية المصرية. استنادا إلى أوراقه، والى بعض المؤلفات التى تناولت تاريخ الحركة فى الأربعينات والخمسينات.

ولما كان الموضوع يتناول دور المنظمين الأجانب من اليهود فى الحركة، ويعرض لجذور منظمة كانت من أهم المنظمات الشيوعية فى مصر، فقد أثار الكتاب اهتمام فصائل اليسار المصرى بمجرد صدوره، بقدر ما أثار اهتمام المعنيين بدراسة تاريخ مصر المعاصر، واختلفت مواقف الأطراف المتباينة باختلاف منطلقاتها السياسية، ومدى القرب من أو البعد عن "حدثو" على وجه الخصوص.

ورغم ذلك لم يحظ الكتاب بمناقشة علمية - بمعنى الكلمة- إلا من جانب الأستاذ طارق البشرى على صفحات "الهلال" الغراء وكان طبيعيا أن تأتى استجابة د. رفعت السعيد للكتاب سياسية محضة، فالرجل كان من مناضلى "حدثو"، والكتاب يلقي أضواء على مسائل أسدل عليها رفعت السعيد ستائر كثيفة فى مؤلفاته، ومن ثم كان مقاله القصير على صفحات "الأهالى" بيانا سياسيا ندد فيه بالكتاب وصاحبه، مدعيا إغراقه فى الأخطاء التى كان مردها - فى رأيه - إلى موجة "العداء للشيوعية"، وقمت بالرد على "بيان" رفعت السعيد على صفحات الجريدة نفسها، فإذا به يعود ويكرر نفس الإدعاء بأسلوب بعيد تماما عن الحوار العلمي، ثم أغلقت "الأهالى" باب الحوار فلم تتح لى ممارسة حقى القانونى فى تقنين التهم التى كالحا رفعت السعيد للكتاب ولنوايا صاحبه، ولم أهتم - من ناحيتي - بالرد عليه طالما

أنه لم يلتزم بأداب وأصول الحوار العلمي الذي يقرع الحجة بالحجة، وخاصة أن الموضوع يستند إلى وثائق دامغة يتضمنها الكتاب. وجاء مقال الأستاذ طارق البشرى ثم مقال الأستاذ محمد سيد أحمد بالهلال ليؤكد صحة ما توصلت إليه من نتائج عند دراستي لأوراق هنري كوريبيل.

ولكن منذ أسابيع طرحت بالأسواق طبعة جديدة للترجمة العربية لكتاب " جيل بيرو " تحمل عنوان "هنري كوريبيل رجل من نسيج خاص" ، نسبت إلى الأستاذ لطيف فرج، وتصدرتها إشارة إلى أن جماعة أصدقاء هنري كوريبيل بباريس قد خصت هذه الطبعة بمجموعة هامة من التعليقات كتقدير منها لجهد المترجم والناشر المصرى. والطبعة المصرية الجديدة للكتاب أجود أسلوبا من الطبعة اللبنانية التي ظهرت منذ نحو ثلاث سنوات، وقد حذفت منها بعض الألفاظ النابية التي إستخدمها المؤلف الفرنسى عند وصفه لبعض خصوم كوريبيل من الشيوعيين المصريين، كما حذفت منها إشارة هامة أوردها المؤلف على لسان " مكسيم رودنسو " ذكر فيها أن كوريبيل كان سطحيا فى فهمه للماركسية، وأن قدراته التنظيمية تجاوزت بكثير معرفته النظرية.

غير أن الجديد اللافت للنظر فى هذه الطبعة، ملحق فى تسع صفحات بعنوان " رسالة إلى الدكتور رعوف عباس" بتوقيع " يوسف حزان " نيابة عن " أصدقاء ورفاق هنري كوريبيل " ومؤرخة فى 22 فبراير 1988. ولست أدري لماذا إختار صاحبها أن يوجهها لى بهذه الطريقة، وربما أراد بذلك أن يترك عند القارئ انطباعا بأننى تلقيت الرسالة وأهملت الرد عليها، فلم يجد الرجل مفرا من ارفاقها بهذا الكتاب الذى جعل من هنري كوريبيل أسطورة، والذى كانت وراء إصداره مجموعة روما" "لحدثو" أو ما يسمى اليوم بجماعة أصدقاء ورفاق هنري كوريبيل.

ويوسف حزان أو " الرفيق سوسو " ينتمى إلى الجيل الثالث لأسرة يهودية دمشقية، نزحت إلى مصر أواخر القرن الماضي، وولد يوسف حزان بمصر عام 1917م، حيث تلقى ثقافة عربية وفرنسية، وحصل على بكالوريوس الزراعة من فرنسا، ومارس المهنة بمص، وانضم إلى الحلقات الماركسية فى الأربعينات، ولكن صلته بكوريبيل ترجع إلى عام 1947م، ومنذ غادر مصر إلى فرنسا عام 1949م، كان الذراع الأيمن لهنري كوريبيل فى " مجموعة روما " التى كونها هنري من الشيوعيين اليهود من أعضاء " حدثو" بباريس، كما كان مسئولا عن النواحي المالية والتنظيمية للجماعة، وما زال يحظى بتقدير خاص من رفاق حدثو القدامى .

وتتناول رسالة " الرفيق سوسو " سאלفة الذكر، نفس النقاط الثلاث التى جاءت ببيان رفعت السعيد، فهو يعترض على ما جاء بكتاب "أوراق هنري كوريبيل والحركة الشيوعية المصرية" من إشارة مستتدة إلى الوثائق- إلى موقف هنري كوريبيل من القضية الفلسطينية وعلاقاته مع الوجود الصهيونى فى فلسطين فى الأربعينيات وخاصة وصف كوريبيل لحرب فلسطين 1948م " بالحرب الظالمة ضد إسرائيل" و"الحرب

الإمبريالية ضد إسرائيل" فذكر "الرفيق سوسو" أن قرار المكتب السياسى لحدثو بقبول قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين عام 1947م كان إجماعيا، نظرا لموافقة الإتحاد السوفييتى على القرار، ولأن القرار يعنى رحيل القوات البريطانية عن فلسطين وانتهاء الإنتداب، وتمكين "الشعبين" العربى والفلسطينى و"الشعب اليهودي" من ممارسة حقهما فى تقرير المصير. ومن ثم كانت حرب 1948م - فى رأيه- من تدبير الإمبريالية البريطانية بمساعدة الأنظمة الرجعية العربية فى المنطقة، ويستدل على ذلك بالانسحاب المتعجل للقوات البريطانية من فلسطين، وسماح الإنجليز للجيش المصرى بالتوجه إلى فلسطين عبر قناة السويس، والهدف من ذلك زعزعة الوضع فى فلسطين حتى تقوم الأمم المتحدة بتمديد الإنتداب البريطانى، واستغلال حالة الحرب بفرض الأحكام العرفية فى بلدان المنطقة وتوجيه الضربات إلى الحركة الوطنية فى البلدان العربية.

أما النقطة الثانية فتتعلق بما أوردناه تعليقا على خطابى كورييل إلى نعوى كانل وصلتها بالإسرائيليين المسجونين بمصر، وهنا يؤكد الرفيق سوسو أن نعوى كانل كانت تتصل بالفلسطينيين الشيوعيين المعتقلين بالسجون المصرية وليس بالإسرائيليين.

أما النقطة الثالثة فتتصل بالإشارة التى أوردناها بالكتاب عن نشاط كورييل فى تأييد حركة التحرير الجزائرية، ومن أنه قد أصبح بعد نجاح الثورة من مستشارى أحمد بن بللا، فرأى "الرفيق سوسو" أن هذه الإشارة المقتضبة لا تكفى لتقدير الدور النضالى لكورييل، ونفى أن يكون من مستشارى بن بللا.

وقبل أن ننفذ هذه النقاط الثلاث أود أن أعرب عن تقديرى الكامل للأستاذ يوسف حزان، وإعجابى بأسلوبه المتحضر فى طرح وجهة نظره فيما كتبت عن "رفيق نضاله" هنرى كورييل، فهو يصدر طبعة "مصرية" من كتاب جيل بيرو، ويبعث إلى بهذه الرسالة التى أعرب فى صدرها عن تقديره هو ورفاقه فى مصر وباريس للكتاب الذى قمت بنشره، وتأكيده على أهميته وصحة ما جاء به من وثائق ولم ينسب عملى إلى "الموجة الغبية المعادية للشيوعية" كما فعل "الدكتور" رفعت السعيد، وأود أن ألفت نظر "الرفيق سوسو" إلى الفرق الكبير بين مؤرخ يتناول الوثائق بمنهج علمى يسعى لإلقاء الضوء على ظاهرة سياسيه تتعلق بتاريخ بلده المعاصر، ورفيق وصديق لشخصية لعبت دورا فى تكوين هذه الظاهرة، فعلى حين تتوفر الحيدة التامة للمؤرخ تغلب العواطف الشخصية والذكريات المشتركة على رؤية الرفيق والصدىق.

فبالنسبة لموقف كورييل من القضية الفلسطينية كانت هناك صلات حميمة بين هنرى ورجال الهاجاناة المجندين فى الفيلق اليهودى خلال الحرب العالمية الثانية، والذين كانوا بمصر، ونجده يتحسر فى سيرته الذاتية (والأصل الفرنسى بين يدي الرفيق سوسو) لأن الإنجليز لا يشركونهم فى المهام القتالية حتى لا يكتسبوا خبرة عسكرية، وطبعا كانت هذه الخبرة لصالح "نضال" "الشعب اليهودى" ضد "الشعب

العربي الفلسطيني" بدهاءة. وبعد استقرار كورييل بباريس وسعيه الدائب للتوصل إلى سلام عربي - إسرائيلى، كانت المجموعة التى ينسق جهوده معها من رجال كانوا من قيادات الهاجاناة وقيادات منظمى شيترن وأراجون الإرهابيتين، فقد كان كورييل لا يرى جدوى فى الحوار العربي مع الحماثم وحدهم، ويسعى لإشراك العناصر " المحبة للسلام " من الصقور. ولا أظن أن الصقور قد قبلوا بالتعاون مع كورييل دون أن يضعوا فى اعتبارهم صلاتهم به أثناء الحرب العالمية الثانية .

ضرب الحركة الوطنية

أما عن حرب فلسطين عام 1948م، فأتفق مع الرفيق سوسو أنها أتاحت للأنظمة الرجعية فرصة فرض الأحكام العرفية وضرب الحركة الوطنية، ولكن الوثائق التاريخية تكشف أن بريطانيا كانت تعلم جيدا أن انسحابها من فلسطين لصالح ما أسماه " الرفيق سوسو" بالشعب اليهودى، ما يسميه العالم كله بالصهيونية، فى مذكرة قدمت لمجلس الوزراء البريطانى فى 3 يوليو 1946م، قدرت قوة الهاجاناة بحوالى 75 ألف مقاتل، وباللماخ (القوة الضاربة فى جيش الهاجاناة السرى) بخمسة آلاف مقاتل، كما قدرت قوة الأرجون بحوالى خمسة أو ستة آلاف مقاتل مدربين تدريبا جيدا على حرب الشوارع وأعمال التخريب، وقوة شتيرن بحوالى 300 - 400 فرد متخصصين فى أعمال الإغتيال. وفى نفس الوقت قدر التقرير أن بإمكان عرب فلسطين تقديم ما لا يزيد على ثلاثة عشرة ألفا من المقاتلين على اعتبار أن عدد العناصر النشطة بصورة فعالة بين العرب فيما بين 1936-1939 لم يتجاوز الألفين. وتحدث التقرير عن تسليح الطرفين وشتان بين تسليح "الشعب اليهودى" وعرب فلسطين. فلم يكن هناك أى تكافؤ، لصالح من إذن كان انسحاب بريطانيا؟! لقد أيقنت بريطانيا أن "إسرائيل" قائمة لا محالة. فلم تشأ أن تورط نفسها فى تطبيق التقسيم بالقوة حتى لا تغضب العرب الذين كانت تعول على مصالحها الإستراتيجية والبتروولية فى بلادهم، وتغضب حليفها الولايات المتحدة التى لم تقبل إلا ما يقبل به اليهود. وكان اليهود يرفضون التقسيم (كما هو معروف).

ولكن يحسب لهبرى كورييل أنه كان بعيد النظر - إلى حد كبير - ويدرك أن "إسرائيل" لا تستطيع البقاء إلى الأبد وسط محيط عربي معاد، ومن ثم كان تبنيه لفكرة "السلام العادل" الذى يسمح بقيام دولة فلسطينية إلى جانب إسرائيل و" تعايش سلمى" بين إسرائيل والبلاد العربية، حتى أنه حاول أن يقنع الإسرائيليين بلعب دور لمساعدة جبهة التحرير الجزائرية (كما يذكر بيرو، ص 414 من الطبعة المصرية) على أمل أن تقوم الجزائر بعد تحقق الإستقلال بتسويق السلام العربي - الإسرائيلى، ولكن مصالح إسرائيل كانت مع المعسكر الإمبريالى، ففشل سعى كورييل، غير أن مستقبل إسرائيل كان يلح على ضميره السياسى.ومن هنا كان حرصه على فتح قنوات الإتصال مع القيادة المصرية بمد الملحق العسكرى المصرى فى باريس بالمعلومات وتبدير لقاءات بين بعض قوى اليسار الإسرائيلى وشخصيات مصيرية من رفاق حدتو القدامى (بعد حرب 1967م) بالتنسيق مع القيادة المصرية . وأخيرا محاولات مد

الجسور بين ممثلى المجلس الإسرائيلى للسلام ومنظمة التحرير الفلسطينية التى اشترك فى بعضها يوسف حزان ورفعت السعيد (مايو 1976م)، ومن ذلك - أيضا -تدبير اللقاءات بين عصام السرطاوى (ممثل عرفات) وبعض العناصر الإسرائيلىة من حركة السلام.

أما عن حكاية نعمى كائل، فهى من كوادر حدثو، يهودية متمصرة غير محددة الجنسية، نشأت بمصر، وكانت زوجة لشاعر مصرى من أعضاء حدثو، وحوكمت عام 1954م فى (قضية الجبهة) التى اتهم فيها بعض الشيوعيين واليساريين المصريين وبعض المثقفين والفنانين وضباط الجيش وحكم عليها بالسجن خمس سنوات، ويبدو أننى قد تورطت - دون قصد فى جرح مشاعر رفاق حدثو، لأن هذه السيدة كانت وراء جهود المنظمة لتخصيص أحد مقاعدها العشرة فى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى المصرى الموحد للرفيق يونس "هنرى كوريبيل"، وتمسك مفاوضو حدثو بذلك فى المفاوضات الخاصة بالوحدة عام 1957م وكان رفعت السعيد -عندئذ- أمينا للجنة التفاوض - وأثار المقعد الذى خصص للرفيق يونس المتاعب - فيما بعد- لحدثو- كما أفقدها صوتا باللجنة المركزية لوجود كوريبيل بالخارج. وقد شكر الرفيق يونس نعموى كائل على ما بذلته من جهد لعودته إلى الحزب، وخاصة أن "الحزب الشيوعى المصرى الموحد" قد تفرد بذلك بين أحزاب المشرق العربى بقبول عودة "عنصر يهودى" -على حد تعبير كوريبيل- إلى قيادته.

وقد استنتجت من إحدى الرسالتين الموجهتين من كوريبيل إلى نعموى كائل أنها لعبت دور ضابط الإتصال بين بعض الإسرائيليين الذين كانوا مسجونين بمصر فى إحدى قضايا التجسس وبين إسرائيل من خلال هنرى كوريبيل، فقد أشار بيرو إلى شئ من هذا تلميحا دون أن يذكر اسم كائل صراحة، كما أن هنرى كوريبيل استخدم كلمة "الفلسطينيين" عند الإشارة إلى رجال الفيلق اليهودى خلال الحرب الثانية. واستخدمها بنفس الطريقة عند الإشارة إلى يهود فلسطين بأحد تقاريره. ولا يمنع ذلك من أن تكون نعموى قد نقلت رسائل من فخرى مكى الشيوعى الفلسطينى المعتقل بمصر وأخيه أسعد مكى عبر كوريبيل أيضا. كما أنه ليس هناك ما يمنع كائل من أن تنتقل الرسائل من المسجونين الإسرائيليين إلى هنرى كوريبيل لينقلها بدوره إلى ما اسماه "إيلي" فى إسرائيل، فصلات كوريبيل بالإسرائيليين واضحة تماما فى رسالته تلك وفى كتاب بيرو سواء أولئك الذين عرفهم خلال الحرب من رجال الهاجاناة أو بعض رفاقه الذين غادروا مصر إلى إسرائيل، كما أن صلات كوريبيل بالصقور فى إسرائيل كانت تعادل صلاته بالحمام. فلماذا هذه الحساسية عند الرفيق سوسو ورفعت السعيد، ولماذا لم يكشف لنا الرفيق سوسو عن يكون "إيلي" الذى كان يتلقى الرسائل فى إسرائيل عبر هنرى كوريبيل!؟

ولست فى حاجة إلى التعليق على الملاحظة المضحكة التى ذكرها رفعت بين نزلاء السجون المصرية وعدم وجود نعموى كائل مع الآخرين فى سجن واحد، فقد كانت خطوط الإتصال قائمة بين الرفاق فى

مختلف السجون، وإلا لما استطاعت الرفيقة نعومي أن تتصل بمفاوضي حدثو في مفاوضات الوحدة، ولما كانت هذه الرسائل المتبادلة بينها وبين الرفيق يونس في باريس.

أما عن الملاحظة الأخيرة التي ذكرها يوسف حزان والخاصة بدور كورييل في حركة التحرير الجزائرية فلم تكن موضع دراستي في الكتاب لعدم توفر المادة الوثائقية الخاصة بها. ومعلوماتنا عن هذا النشاط مستقاه من كتاب بيرو، ومن الواضح أن هذا الدور لم يكن منقطع الصلة عن جهود كورييل لإقامة سلام عربي - إسرائيلي، وما قصدته بقولي أن هنري كورييل كان من مستشاري بن بللا أنه كان من ثقافته. وكان هنري يعتمد على بن بللا في تمويل نشاط منظمة "التضامن" التي أنشأها في باريس للعمل مع حركات التحرر الوطني وانقطع التمويل الجزائري بوصول بومدين إلى السلطة ولعل كان لديه ما يبزر ذلك.

بقيت نقطة فرعية تتمثل في تأكيد الرفيق سوسو لمصرية كورييل، وهو أمر لم يخطر ببال الرجل نفسه كما يتضح من سيرته الذاتية، وكما يتضح أيضا مما كتبه قبل اغتياله بعام واحد إذا يقول: " أن الوطن الوحيد الذي شعرت بارتباطي به هو فرنسا" (ص 53 من الطبعة المصرية لكتاب بيرو).

إن الحديث عن رجل مثل هنري كورييل لا بد أن يتشعب بتشعب نشاط هذا الرجل الذي كان بحق " رجل من نسيج خاص" ولعلنا نكون قد وفقنا هنا في تحديد أهم خيوط هذا النسيج، ومع تقديري الكبير للرفيق سوسو، لا أظن أنه يختلف معي في أن السياسي " إنسان" له ما لسائر البشر من فضائل ونقائص، وأن لكل "مناضل" هدف يسعى لتحقيقه ويبدل حياته من أجله، وكذلك كان هنري كورييل.